

الفصل الحادي عشر: مُدُن البُحيرة والبُسطاء

١- الاستقبال

قد نتساءل لماذا يرفض البعض أن يؤمنوا بالرغم من كثرة القديسين والظهورات التي نجدُها اليوم في عالمنا المسيحي. هل يكشفُ الله عن إرادته الخلاصية لبعض النُخبَة أم لجميع الناس؟ جرت أيام المسيح آياتٌ كثيرة؛ بالرغم من ذلك، قبل الملكوت البُسطاء والأطفال. كيف نفهم موضوع النعمة أو الوحي الخاص، وما علاقته بالتوبة والإيمان؟ إن إنجيل اليوم يهدد غير التائب وغير المؤمن بالهبوط إلى الجحيم، كما أنه يعد بالراحة لجميع المرهقين والمتعبين تحت ثقل الأعباء. ربنا نعيش اليوم فترة هموم وتعب في حياتنا، لذلك يمكننا أن نسمع كلمات القديس أوغسطينوس يهمس في أذهاننا: «لقد خلقنا يا رب، وقلبنا لا يزال قلقًا إلى أن يرتاح فيك».

٢- قراءة الإنجيل وتفسيره

يسوع يُعنف مُدُن البُحيرة (١١: ٢٠-٢٤)، وأسرارُ الله تُكشَفُ للبُسطاء (١١: ٢٥-٣٠)

٢٠ ثُمَّ أَخَذَ يُعْنَفُ المُدُن التي جَرَت فيها أكثرُ مُعْجَراتِه بِأَنَّهَا ما تَابَت فقال: ٢١ الوَيْلُ لَكَ يا كُورَزين! الوَيْلُ لَكَ يا بَيْت صَيْدا! فلو جَرى في صُورٍ وصَيْدا ما جرى فيكما مِنَ المُعْجَرات، لِتَابَتَا توبَةً بالمِسح والرَّمادِ مِنْ زَمَن بَعِيد. ٢٢ على أَنِّي أَقولُ لَكُم: إنَّ صُورَ وصَيْدا سَيَكُونُ مَصِيرُهُما يَوْمَ الدَّيْنُونَةِ أَخَفَّ وَطَآءً مِنْ مَصِيرِكُما. ٢٣ وَأنتِ، يا كَفَرناحوم، أَترَكِ تَرْفَعِينَ إلى السَّماءِ؟ سَيُهْبَطُ بِكَ إلى مَثْوَى الأَموات. فلو جَرى في سَدومَ ما جرى فيكَ مِنَ المُعْجَرات، لَبَقِيَتْ إلى اليَوْم. ٢٤ على أَنِّي أَقولُ لَكُم: إنَّ أَرْضَ سَدومَ سَيَكُونُ

مَصِيرُهَا يَوْمَ الدِّينِونَةِ أَخَفَّ وَطَاءَةً مِنْ مَصِيرِكَ.

٢٥ في ذلك الوقت تكلم يسوع فقال: أحمدك يا أبت، رب السموات والأرض، على أنك أخفيت هذه الأشياء على الحكماء والأذكياء، وكشفتها للصغار. ٢٦ نعم يا أبت، هذا ما كان رضاك. ٢٧ قد سلمني أبي كل شيء، فما من أحد يعرف الابن إلا الأب، ولا من أحد يعرف الأب إلا الابن ومن شاء الابن أن يكشفه له. ٢٨ تعالوا إلي جميعاً أيها المهقون المثقلون، وأنا أرفعكم. ٢٩ احمّلوا نيري وتعلمذوا لي فإني وديع متواضع القلب، مجدّوا الراحة لنفوسكم، ٣٠ لأن نيري لطيف وهلي خفيف.

٢. ١- الشرح

نحن أمام نصين متتاليين من إنجيل متى. يُعطي الأوّل (١١: ٢٠-٢٤) صورةً قاتمةً عن عدم تقبل يسوع ورسالته وعن عدم التوبة، ويُعطي الثاني (١١: ٢٥-٣٠) الصورة الإيجابية عن الوحي الذي خصّه الله بالبسطاء والمُرهقين بالأنثقال.

يُعرض النصّ الأوّل (متى ١١: ٢٠-٢٤) واقع بعض المُدن المُحيطة ببُحيرة طبرية التي لم تؤمن برسالة المسيح. فقد عرّفنا في بداية الإنجيل (متى ٤: ٢٣-٢٥) أن يسوع بَشَّرَ في الجليل وأن شهرته طالت كل الجوار فتهاقت إليه كثير من الناس. مع هذا، لقد وبَّخ يسوع أهل زمانه لأنهم رَفَضُوا رسالة يوحنا المعمدان ورسالته هو، فالمعمدان، برأيهم، كان يُكثر من التَّقشُّفات، ويسوع، يؤاكل العُشارين (١١: ١٦-١٩). وهنا تتضح الصورة: مُدن البُحيرة التي حَصَلت على أكثر مُعجزاته لم تُتب! فيأتي يسوع بطريقة قاسية غير اعتيادية مُعنفاً سُكَّان هذه المُدن، كورزين وبيت صيدا وكفرناحوم، ومُهدداً بويل الهبوط إلى الجحيم وبالقصاص الأخير. لقد كان هدف العجائب أن تُحرِّك التوبة عند أهل هذه المُدن وأن تُبقيهم في حياة دائمة، إلا أنهم بسبب عدم توبتهم سينالون دينونة عظيمة. إن يسوع، في توصيفه لهذا المصير المُخيف، لا يُقبل الباب نهائياً، إنما، بكثرة رحمته، سيزور كفرناحوم ومُدن البُحيرة مُجدداً (متى ١٤: ١٤؛ ١٧: ٢٤). فالتوبة هي إمكانيّة دائمة للمؤمن.

يتحدّث النصّ الثاني (متى ١١: ٢٥-٣٠) عن صلاة ودعوة: صلاة يسوع هي تسيبُح موجّهة نحو الأب. فالله يوحى بإرادته للأطفال. فيسوع هو ابن الله والكاشف الوحي الحقيقى عن إرادته. وقد أعطى يسوع للكنيسة من بعده أن تُكمل إعلان حبّ الله للبشر. فمن يكشف بتعليم يسوع وكنيسته إرادة الأب يكون من المتواضعين الصغار، الذين بإمكانهم أن يُسبِّحو الله كأطفال الشعانين الذين قيل عنهم «بأفواه الأطفال والرُضع أسست لك عزة» (متى ٢١: ١٦). أمّا الحكماء والفُههاء فهم

كُلُّ الَّذِينَ يَعْرِفُونَ جَيْدًا الْكُتُبَ الْمُقَدَّسَةَ وَيُمَلُونَ وصاياهم على الناس، دون أن يعملوا بموجبها، لأنها نيرٌ ثقيلٌ مليءٌ بالزيادات على روح الشريعة. لذلك يدعو يسوع في القسم الثاني من هذا النص (١١: ٢٨-٣٠) كُلُّ الَّذِينَ أَرَهَقْتَهُمُ الْإِضَافَاتُ عَلَى الشَّرِيعَةِ، أَنْ يَحْمِلُوا نِيرَهُ، أَي تَعْلِيمَهُ اللَّطِيفَ وَالْحَقِيفَ. هذا لا يعني أن تعليم يسوع أسهل من تعليم الفريسيين، إنما من يعيش إرادة الله في حياته لا يتصنع ولا يتباهى ولا يظهر بوجهين، وبذلك تكون حياته أسهل ممن يتعالى ويتكبر على غيره: فهذه الوضعية المتشاحجة تجعل صاحبها تعبًا بسبب ثقل الأثمة التي تخفي حقيقته.

٢.٢ - التَّوَيْن

علينا أن نفتح عيون قلبنا فترى عمل الله في حياتنا وفي العالم. إن مشكلة الإنسان أنه ينسى تدخلات الله الكثيرة في حياته. فمن يعرف أن الله حاضرٌ وفعال، عليه أن يتوب إليه، فيعترف بعطاياه، ويجعل من حياته سيرةً مطابقةً لتعاليمه. في مسيرتنا نحو العباد، من الواجب التفكير بموضوع التوبة جديًا، والانخراط في مسيرة تغيير القلب والذهنية، فنجاب بإيمانٍ جديد عن كشف الله لحبه لنا.

يُعلِّمنا يسوع أن نُسبح الآب على مواهبه وعطاياه. إن صلاتنا لا تقوم فقط على الطلبات إنما بالدرجة الأولى على شكر الله وتمجيده؛ فمن يعرف أن يشكر الله يُغمر بالنعم والبركات.

يدعونا يسوع المتواضع القلب للتشبه به. لقد أوصله تواضعه أن يصير عبد الله المتألم، «قصة مَرْضُوضَةٌ لَا يَكْسِرُ وَفَتِيلَةٌ مُدَخَّنَةٌ لَا يُطْفِئُ» (متى ١٢: ٢٠). فمن يتواضع مثل يسوع يُرفع. ومن يستقبل الملكوت كطفل يُعدُّ كبيرًا في السماء. إن القيام بواجباتنا البسيطة الصغيرة يوصلنا إلى القداسة. هكذا فهتمت القديسة تريزيا الطفل يسوع طريق الكمال فعلمتنا بمثلها «الطفولة الروحية».

٣- التَّعْلِيمُ اللَّاهُوتِيُّ وَالرُّوحِيُّ: الْوَحْيِي - اللَّهُ يَكْشِفُ عَنْ ذَاتِهِ لِلإِنْسَانِ

منذ أن خلق الله السماوات والأرض مدَّ يده صوب الإنسان بمحبة، لئيساعده وفي الوقت عينه ليكشف له عن نفسه فيتمكن هذا الأخير من الدخول مع الله في علاقة شخصية، إظهارها الإيمان. وهي نعمة كبيرة أن يدخل الإنسان في فهم سر الله، ليعرفه ويحبه. وحي الله مسيرة طويلة ابتدأت في أول التاريخ وبلغت ذروتها بيسوع المسيح، ابن الله وكلمته النهائية. ويستور عيشها بشكل حي في الكنيسة، فتفهم يومًا بعد يوم عمق سر الله وغناه.

من الضروري التشديد على أن كشف الله عن نفسه لم يكن بأنه أرسل أفكارًا أو فلسفة، أو أنزل

مِنَ الضَّرُورِي التَّشْدِيدِ عَلَى أَنَّ كَشَفَ اللَّهِ عَنِ نَفْسِهِ لَمْ يَكُنْ بَأَنَّهُ أَرْسَلَ أَفْكَارًا أَوْ فَلَاسَفَةً، أَوْ أَنْزَلَ كَلِمَاتٍ جَاهِزَةً مُخْبِرٌ عَنْهُ. بَلْ إِنَّ وَحْيَهُ رَافِقٌ تَدْخُلُهُ فِي التَّارِيخِ. وَمِنْ ذُرُورَةِ الْمَحَبَّةِ أَنْ يَتَرَفَّقَ كَشْفُهُ عَنِ ذَاتِهِ مَعَ خَلَاصِهِ لَنَا. فَلَوْ إِنَّهُ خَلَّصَنَا دُونَ أَنْ يُخْبِرَنَا عَنْ هَوِيَّتِهِ، لَكَانَ خَلَاصُهُ مُسَاعَدَةً خَارِجَةً عَنْهُ، كَمَا يُعْطِي حَسَنَةً، وَهُوَ غَنِيٌّ، لِأَنَاسٍ فُقَرَاءَ، وَيُرِيدُهُمْ أَنْ يَبْقُوا بَعِيدِينَ عَنْهُ. لَكِنَّ خَلَاصَ اللَّهِ اشْتِرَاكَ فِي

حَيَاتِهِ، تَبْنَانًا بَابِنِهِ الْوَحِيدِ، رَبَّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ. لِذَلِكَ أَرَادَ فِعْلًا أَنْ نَتَعَرَّفَهُ لِكَيْ نُحِبَّهُ وَنُقِيمَ مَعَهُ عِلَاقَةَ الْأَبْنَاءِ بِأَبِيهِمْ. وَمِنْ جِهَةٍ ثَانِيَةٍ، لَوْ أَنَّهُ كَشَفَ عَنِ نَفْسِهِ دُونَ أَنْ يُخَلِّصَنَا، لَبَدَا كَمَا يَتَعَالَى عَنَّا وَكَأَنَّهُ يَتْرُكُنَا فِي بؤْسِنَا. لَا وَحْيٍ مِنْ دُونَ خَلَاصٍ، وَلَا خَلَاصٍ مِنْ دُونَ وَحْيٍ. إِنَّمَا إِرَادَةُ اللَّهِ وَمَحَبَّتُهُ اللَّامْحُدُودَةُ، لَقَدْ حَسَنَ لَدَيْهِ كُلُّ هَذَا التَّدْبِيرِ لِأَجْلِنَا.

تَدْخَلَ اللَّهُ فِي قَدِيمِ الْأَيَّامِ وَخَاطَبَ آدَمَ، ثُمَّ نُوحَ وَأَقَامَ مَعَهُ عَهْدًا. ثُمَّ خَاطَبَ إِبْرَاهِيمَ وَأَعْطَاهُ نَسْلًا، وَخَاطَبَ غَيْرَهُمْ... وَلَمْ يَكُنْ تَدْخُلُهُ مَعَ الْأَفْرَادِ لِأَجْلِهِمْ وَحَدَّهُمْ بَلْ فِي سَبِيلِ شَعْبِهِ، بَلْ فِي سَبِيلِ كُلِّ الْأُمَّمِ. وَكَانَ يُحْمَلُهُمْ رِسَالَةٌ تَشْرَحُ مَعْنَى تَدْخُلِهِ وَالْمَسِيرَةَ الَّتِي يَقْتَرِحُهَا عَلَى الْإِنْسَانِ. ثُمَّ كَانَ الْخُرُوجُ مِنْ مِصْرَ إِلَى أَرْضِ الْمِعَادِ بِفَضْلِ ذِرَاعِ الرَّبِّ الْقَوِيَّةِ. وَرَافَقَهُمْ لَيْلًا وَنَهَارًا... وَهَكَذَا اسْتَمَرَ اللَّهُ مُكَلِّمًا شَعْبَهُ بِأَشْكَالٍ شَتَّى وَطُرُقٍ مُتَنَوِّعَةٍ، حَتَّى كَلَّمَنَا فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ الْأَخِيرَةِ بَابِنِهِ الْوَحِيدِ (عَب ١). فَمَعَ يَسُوعَ تَمَّ مِلْءُ الْوَحْيِ.

لَمَا طَلَبَ فِيلْيُوسُ مِنْ يَسُوعَ أَنْ يَكْشِفَ لَهُ الْآبَ أَجَابَهُ الرَّبُّ: «مَنْ رَأَى رَأَى اللَّهَ». وَقَالَ يُوحَنَّا فِي بَدْءِ إِنْجِيلِهِ: «اللَّهُ مَا رَأَهُ أَحَدٌ قَطُّ، الْإِبْنُ الْوَحِيدُ الَّذِي فِي حِضْنِ الْآبِ هُوَ أَخْبَرَ عَنْهُ». كَانَ يَسُوعَ كَلِمَتَهُ بِأَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ، بِكُلِّ حَيَاتِهِ، بِمَا عَمِلَهُ وَعَلَّمَهُ. لِهَذَا دَعَا تَلَامِيذَهُ لِيَعِيشُوا مَعَهُ طِيلَةَ حَيَاتِهِ الْعَلَنِيَّةِ، لِكَيْ يَرَوْا وَيَلْمَسُوا وَيَسْمَعُوا، بِحَوَاسِّهِمْ مَنْ هُوَ اللَّهُ. وَكَانَتْ الذَّرُورَةُ حِينَ شَاهَدُوهُ قَائِمًا مِنَ الْمَوْتِ مُجْجَدًا، عِنْدَهَا أَدْرَكُوا بِنِعْمَةِ الرُّوحِ الْقُدُسِ أَنَّهُ مِنْ جَوْهَرِ اللَّهِ نَفْسِهِ، مَلِئُهُ النِّعْمَةُ وَالْحَقُّ.

تَحْمَلُ الْكَنِيسَةُ إِلَى الْيَوْمِ هَذَا الْاِخْتِيَارَ وَتَنْقُلُهُ مِنْ جِيلٍ إِلَى جِيلٍ. وَكَانَتْ فِي كُلِّ زَمَنِ كَلِمَةُ اللَّهِ الْحَاضِرَةَ فِي إِيمَانِ الْكَنِيسَةِ، نُورًا لِلْمُؤْمِنِينَ تَهْدِيهِمْ فِي مَوَاقِفِهِمْ وَفِي عِلَاقَتِهِمْ بِاللَّهِ، عِلَاقَةً تُعْطِيهِمُ الْحَيَاةَ. تَدْخُلُ الْكَنِيسَةُ إِذَنْ عَبْرَ الْأَجْيَالِ فِي فَهْمِ أَفْضَلِ هَذَا الْاِخْتِيَارِ الْعَظِيمِ، وَتُعَبِّرُ عَنْهُ فِي تَعَالِيمِهَا وَعَقَائِدِهَا، مُسْتَنِيرَةً دَوْمًا بِكُتُبِ الْعَهْدِ الْجَدِيدِ، مِنَ الْأَنْاجِيلِ حَتَّى سِفْرِ الرُّؤْيَا، فَهِيَ قَلْبُ الْوَحْيِ وَإِلَيْهَا تَعُودُ بِاسْتِمْرَارٍ لِتَمْتِنَ إِيمَانُهَا.

عماد التنوير

متى نَعْتَمِد نَسْتَتِر، ومتى نَسْتَتِر نُضِح أبناء، ومتى نُضِح أبناء نُضِح كَامِلِينَ، ومتى نُضِح كَامِلِينَ نَأْخُذ عَدَمَ المَوْتِ: «قد قُلْتُ إِنَّكُمْ آلهَةٌ وَبَنُو العَلِيِّ كُلُّكُمْ» (مز ٨١: ٦). إلى هذا العِمَادِ تُنَسَّبُ أَسَاءٌ مُخْتَلِفَةٌ. العِمَادِ نِعْمَةٌ، اسْتِنَارَةٌ، غُسْلٌ، إِكْمَالٌ: «غُسْلٌ» لَأَنَّنا بِهِ نَنْتَقِي مِنَ آثَامِنَا. و«نِعْمَةٌ» لَأَنَّ القِصَاصَ المُتْرَتِّبَ عَلَى خَطَايَانَا قَدْ أَبْطَلَ. و«اسْتِنَارَةٌ» لَأَنَّنا نَتَأَمَّلُ نُورَ خِلاصِنَا المُقَدَّسِ، وَنَفْذُ بِالبَصِيرَةِ إِلَى الأَشْيَاءِ الإلهِيَّةِ. و«إِكْمَالٌ» لَأَنَّنا لَا يَنْقُصُنَا مَعَهُ شَيْءٌ...

والإنسانُ فَوَرَ اعْتِمَادِهِ، يُدْعَى «مُسْتَتِرًا»: لَقَدْ تَحَرَّرَ فِعْلاً مِنَ الظُّلُمَاتِ، وَنَعِمَ بالنورِ. فَحِينَ نَنْقُضُ عَنَّا الرُّقَادَ، نَدْخُلُ تَوًّا فِي حَالَةِ اليَقْظَةِ. وَحِينَ نَمْسَحُ الضَّبَابَ عَن عُيُونِنَا، تَكْتَشِفُ البَصَرُ. وَالنَّظْرُ لَا يَأْتِي مِنَ الخَارِجِ، بَلْ قَدْ أزلْنَا مَا كَانَ يَحْجُبُ العَيْنَ، فَحَرَّرْنَا حَدَقَةَ العَيْنِ.

فالأمرُ عِنْدَهُ يَحْدُثُ فِي العِمَادِ: لَقَدْ تَحَرَّرْنَا مِنَ خَطَايَانَا الَّتِي كَانَتْ سَحَابَةً تَحْجُبُ عَنَّا الرُّوحَ الإلهِيَّ. فَإِذَا بَعَيْنِ رُوحِنَا قَدْ تَحَرَّرَتْ هِيَ أَيْضًا، فَانْقَسَعَ ضَبَابُهَا وَاسْتِنَارَتْ. وَهَذِهِ العَيْنُ وَحُدُّهَا، تَجْعَلُنَا نَتَأَمَّلُ الأُمُورَ الإلهِيَّةَ. وَهَكَذَا يَتَغَلَّغُلُ فِيْنَا الرُّوحُ القُدُّسُ الهَابِطُ مِنَ السَّمَاءِ، وَهُوَ شِدَا الضِّيَاءِ السَّرْمَدِيِّ، وَيُمْكِنُنَا مِنَ تَأَمُّلِ النُّورِ الأَبَدِيِّ... وَفَوَرَ ارْتِدَادِنَا إِلَى اللهِ، نَنْبُدُ تَحْمَلُ نَتَائِجِ خَطَايَانَا، وَنَشْفُ بِالعِمَادِ وَنُسْرِعُ نَحْوَ النُّورِ الأَبَدِيِّ أَبْنَاءَ يَرَكُضُونَ إِلَى أَيْهَمِ السَّمَاوِيِّ.

(المُرِّي، ١، ٦)

